المطلب السادس

علم التوحيد في عصر النبوة وأنواعه وتصنيفاته

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن الجهمية وابتداعاتهم العقلية، وكيف ظهرت المدرسة العقلية؟ وبينا أوجه الرد السلفي على شبهة السمنية، وكيف ظهرت المعتزلة على الساحة الإسلامية؟

ثم تناول الحديث قوة انتشار المدرسة العقلية بظهور الأصول الخمسة عند المعتزلة وتبني بعض خلفاء بني العباس لها، وكيف ظهرت البدعة الكبرى حين ألزم الخليفة المأمون بن هارون سائر العلماء الأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن ونفي الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان من أبرزها نفي صفة الكلام عن الله.

وفي هذا المطلب بإذن الله نتناول الحديث عن علم التوحيد في عصر النبوة، وأنواعه وتصنيفاته، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **المقصود بعلم التوحيد لغة واصطلاحا**.

التوحيد لغة مصدر وحد يوحد أي أفرد الشيء يفرده، فالمتوحد هو المنفرد بوصفه المباين لغيره، والمقصود بتوحيد الصحابة ﷺ لربهم أنهم

أفردوا الله ﷻ عن غيره بما أثبته لنفسه من أنواع الكمال في العبودية والربوبية والأسماء والصفات، فهو وحده رب العالمين المستحق للعبادة، كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة:٥. وهو المتوحد في أسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. فهم يؤمنون بأنه سبحانه وتعالى منفرد بالخلق والتدبير، وإليه يرجع الأمر والتقدير، وشهدوا ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه.

أما علم التوحيد في الاصطلاح: هو علم يعرف به طريقة الصحابة والتابعين في توحيد الله بالعبودية، وإثبات العقائد الإيمانية بأدلتها النقلية والعقلية، والرد على المبتدعين في العبادات، والمخالفين في الاعتقادات بالأدلة النقلية والعقلية [١].

- **توحيد العبادة اصطلاح سائد بين السلف منذ عصر النبوة.**

يعتبر علم التوحيد اصطلاحا سائدا بين السلف منذ عصر النبوة، فالصحابة ﵃ كانوا علي دراية تامة بما يجب معرفته في توحيد الله، وكيفية الدعوة إليه، ومناقشة المخالفين فيه.

---

(١) انظر في ذلك: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/٤٠٢، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي بيروت. وقارن ما ورد في العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لعبد الحميد بن باديس ص٦٥، نشر دار الفتح، الشارقة. وانظر أيضا التعريفات لعلى بن محمد بن على الجرجاني ص٩٦، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت دار الكتاب العربي.

وقد أفرد الإمام البخاري رحمه الله (ت:٢٥٦هـ) بابا في الصحيح في كتاب التوحيد، قال فيه: (باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى). ثم عقب بحديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلَيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالى، فَإِذا عَرَفُوا ذلكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلواتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذا صَلوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلى فَقِيرِهِمْ، فَإِذا أَقَرُّوا بِذلكَ، فَخُذ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَال النَّاسِ) [(١)].

ولا شك أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان خبيرا في علم التوحيد بالصورة التي تناسب إتمام الدعوة التي بعث من أجلها. والتي يترتب علي نجاحها دخول الآلاف من أهل الكتاب في دين الله وإلا ما كلفه النبي ﷺ بهذا الأمر العظيم. وفي رواية أخرى عند البخاري توضح أن التوحيد الذي يعلمه معاذ رضي الله عنه هو توحيد العبادة لله، قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ أَهْل كِتَابٍ، فَلَيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِليْهِ، عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ .. الحديث) [(٢)].

وفي رواية ثالثة عند البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا توضح

---

(١) البخاري في التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

(٢) البخاري في الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

أن توحيد العبادة هو معنى شهادة ألا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: (ادْعُهُمْ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ وأَنِّي رَسُول اللهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لذلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي كُل يَوْمٍ وَلَيْلةٍ .. الحديث) [١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَال لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلى اللهِ) [٢].

وروى البخاري من حديث أبي سفيان رضي الله عنه لما سأله هرقل ملك الروم عن النبي ﷺ قال: (مَاذا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلتُ: يَقُول اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُول آبَاؤُكُمْ. وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالصِّلةِ) [٣].

ولذلك يسمى هذا التوحيد بتوحيد الإلوهية، وتوحيد الغاية، وتوحيد العبادة. سمي بذلك عند السلف لأنه المقصود بقول العبد لا إله إلا الله، فالإله هو المعبود بحق، الذي يدعى وحده لا شريك له.

---

(١) البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٣ (٢٣).

(٣) رواه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٧ (٧)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/١٣٩٤ (١٧٧٣).

وتوحيد الإلوهية عندهم هو توحيد العبادة لله وتجريدها له وحده، وتلك هي الغاية التي دعت إليها الرسل، ونزلت من أجلها الكتب.

وإنما قلنا بأن هذا اعتقاد السلف في معنى الإلوهية، لأن السلف اعتمدوا في تقرير ما ذهبوا إليه على نص كتاب الله ﷻ وما صح في سنة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل:٣٦.

وقال سبحانه عن صالح ودعوته لتوحيد الإلوهية: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ هود: ٦١.

وقال ﷻ عن جميع الرسل ودعوته لهذا التوحيد: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء:٢٥.

• المصطلحات التي تدل على علم التوحيد .

وقد تتابع أهل العلم عبر القرون المختلفة على التأليف في هذا الفن تحت مصطلح التوحيد، سواء كانوا من السلفيين، أو كانوا ممن خالفهم من المتكلمين، فالإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت:٣١١هـ) ألف كتابا على نهج السلف الصالح عنون له: "كتاب

التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ". وكتب أبو منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ) كتابا سماه: "التوحيد". وانتهج فيه طريقة المتكلمين الذين يقدمون العقل في إثبات الحجج والبراهين.

وقد بقي اصطلاح "علم التوحيد" دائرا بين المتقدمين والمتأخرين منذ عصر النبوة إلى وقتنا هذا. وتجدر الإشارة إلى كتابين أُلفا تحت ذلك الاصطلاح في القرنين الماضيين، وهما: "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت:١٢٠٦هـ) ، حيث وضعه على نهج السلف الصالح لما انتشر شرك الجاهلية في الجزيرة العربية. وفي المقابل نجد على مذهب المتكلمين الأشعرية "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ).

وقد أطلقت عدة اصطلاحات أخرى على هذا العلم من قبل علماء السلف، أو المخالفين لهم، يتمثل أبرزها فيما يلي:

١- علم العقيدة: فالعقيدة هي عقد القلب على تصديق خبر الرب وتنفيذ أمره، والإيمان به إيمانا لا يقبل الشك، مع الثبات عليه.

وكثير من علماء السلف والخلف استخدم هذا الاصطلاح، كل على وجهته أو منهجه في التعامل مع النصوص، فمن علماء السلف: الإمام أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ) له كتاب بعنوان: "العقيدة". وكذلك كتاب: "العقيدة الطحاوية" للإمام أبي جعفر بن سلامة الأزدي الطحاوي (ت:٣٢١هـ). وكتاب: "اعتقاد أئمة الحديث"، لأبي بكر

الإسماعيلي (ت:٣٧١هـ).

وقد اشتهر مصطلح العقيدة بين المتمسكين بمنهج السلف حتى اقترن بهم، وأصبح التعرف على العقيدة سمتهم بين الناس، وميزانهم المقدم في مسألة الولاء والبراء. كما برزت فيما بعد كتب أخرى كثيرة على منهج السلف الصالح اشتهرت شهرة واسعة بين الناس ككتاب: "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث" للإمام البيهقي (ت:٤٥٨هـ). وكتاب "العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ). وكتاب: "عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة" للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت:١٢٠٦هـ). وغير ذلك كثير ممن كتبوا في العقيدة على منهج السلف الصالح.

كما تردد هذا المصطلح أيضا بين المنتهجين لطريقة الخلف من المتكلمين، فكتب أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) كتابه المسمي: "قواعد العقائد". وكذلك "العقيدة الأصفهانية" التي ألفها الشيخ أبو عبد الله شمس الدين الأصفهاني (ت:٦٨٨هـ)، وهو أحد رؤوس علماء الكلام وقد شرحها شيخ الإسلام ابن تيمية، وخالفه فيها في كتابه المعروف "شرح العقيدة الأصفهانية".

٢- الفقه الأكبر: في بداية القرن الثاني الهجري ظهرت عقيدة الجهمية بظهور أصلها الجعد بن درهم (ت:١٢٥هـ)، فهو أول من قال بخلق القرآن، ونفي أوصاف الله بحجة التنزيه والتوحيد ونفي التشبيه. وقد تبني فكره تلميذه الجهم بن صفوان (ت:١٢٨هـ)، إلا أن الجعد لم

ينل شهرة الجهم. وقد كان مصطلح الفقه عند السلف يعني العلم بالدين وأحكام العبودية التي وردت بها الأدلة القرآنية والنبوية ، ثم جاء المتأخرون من الفقهاء وغيرهم وحصروه بمعرفة الأحكام الشرعية التكليفية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، دون تعرض منهم لتفصيل مسائل العقيدة، فظهر في المقابل مصطلح الفقه الأكبر لبيان أهمية التوحيد قبل القول والعمل، والرد على الجهمية وأتباعهم.

ويعتبر الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت:١٥٠هـ) أول من أطلق هذا اللفظ في كتابه "الفقه الأكبر"، حيث قال رحمه الله في الكشف عن ذلك المعنى الاصطلاحي: (الفقه الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه ﷻ، خير من أن يجمع العلم الكثير) [١].

قال أبو مطيع الحكم البلخي: (قلت: فأخبرني عن أفضل الفقه؟ قال: يتعلم الرجل الإيمان، والشرائع والسنن، والحدود واختلاف الأئمة.. وذكر مسائل في الإيمان، ثم ذكر مسائل في القدر) [٢]. ونسب بعضهم الفقه الأكبر لأبي مطيع الحكم البلخي الذي ذكر فيه أراء أبي حنيفة وأقواله في التوحيد، وهو متن صغير شرحه الكثير من الأحناف [٣].

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٤ ، ومجموع الفتاوى ٥/٤٧ بتصرف.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٤/٣٩٤.

(٣) انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ٢/١٢٨٧، نشر دار الكتب العلمية.

غير أن الشاهد هنا أن اصطلاح الفقه الأكبر بعد أن ظهر في القرن الثاني الهجري، اشتهر على ألسنة العلماء، وأصبح مرادفا لعلم التوحيد والعقيدة عند السلف الصالح وأتباعهم.

٣- السنة: بمعنى سنة الدلالة والطريقة المسلوكة، وقد أُطلق لفظ السنة على علم التوحيد، وعرف به في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث، وذلك حين بلورت المعتزلة آراءها الفكرية في خمسة أصول عقلية، كان أولها ادعاء التوحيد، فقد رتبوا عليه القول بخلق القرآن وتعطيل السنة، وردوا ما ثبت عن رسول الله ﷺ في باب الصفات، وعطلوه بحجة أنها من أخبار الآحاد التي لا تدل على اليقين في أمور الاعتقاد.

وتلك البدع الاعتزالية دفعت أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ) أن يطلقوا مصطلح السنة على مسائل التوحيد والعقيدة تمييزا لها عن أصول المعتزلة، التي أسفرت عن تعطيل السنة وردها، فألف الإمام أحمد بن حنبل كتابه "أصول السنة"، حيث قال في مقدمته:

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والإقتداء بهم، وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات في الدين. والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول، ولا الأهواء، إنما هو الاتباع وترك الهوى. ومن السنة اللازمة التي من

ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها، الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟) [١].

وكذلك الإمام الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (ت:٢٨٧هـ) كتب في الرد على المعتزلة كتابا سماه: "السنة" حيث جاءت مسائله عن الإيمان بالقدر، ورؤية الله تعالى في الآخرة، ومسائل أخرى في صفات الله ﷻ يقف منها أهل الاعتزال موقف التعطيل.

وعلى الوتيرة نفسها جاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) كتابه "صريح السنة"، قال فيه: (فأول ما نبدأ بالقول فيه من ذلك عندنا، القرآن كلام الله وتنزيله إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا، أنه كلام الله غير مخلوق، كيف كتب، وحيث تلي، وفي أي موضع قرئ.. فمن قال غير ذلك، أو ادعي أن قرآنا في الأرض، أو في السماء سوى القرآن الذي نتلوه بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا، أو اعتقد غير ذلك بقلبه، أو أضمره في نفسه، أو قاله بلسانه دائنا به، فهو بالله كافر، حلال الدم، بريء من الله، والله منه بريء) [٢].

وكذلك أيضا كتاب: "السنة" لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي

(١) أصول السنة، نشر دار المنار، من ص١٤، السعودية الخرج سنة ١٤١١هـ.

(٢) صريح السنة ص١٨، تحقيق بدر يوسف المعتوق، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي الكويت ١٤٠٥هـ .

(ت:٢٩٤هـ)، ومثله كتاب: "السنة" لأبي بكر الخلال (ت:٣١١هـ)، وكتاب: "شرح السنة" لأبي محمد الحسن البربهاري (ت:٣٢٩هـ).

وكل هؤلاء العلماء يؤكدون على أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، وأن من السنة لزوم الجماعة، ومن رغب غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وكان ضالا مضلا، وأن الأساس الذي بنيت عليه الجماعة، هم أصحاب محمد ﷺ رحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم فقد ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلال وأهله في النار [1].

وهناك كتب كثيرة باسم السنة كاصطلاح يرادف معنى التوحيد والعقيدة، وكلها كما هو ملاحظ ألفت في القرن الثالث الهجري وحتى منتصف القرن الرابع، وهو عصر سيطرة المعتزلة، وولادة المذهب الأشعري، وظهور أركانه واستقرار بنيانه.

٤- الإيمان: أطلق مصطلح الإيمان على مسائل التوحيد والعقيدة لأنها قضايا تتعلق بتصديق القلب، واستعداده للعمل. وهذان ركنان أساسيان في صلاح الإنسان.

وقد تداول علماء السلف ذلك الاصطلاح منذ وقت مبكر، وأطلقوه على مؤلفاتهم، فمن ذلك كتاب: "الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال

---

(١) انظر بتصرف كتاب شرح السنة لأبي محمد البربهاري، ص٢١ تحقيق د. محمد سعيد سالم القحطاني، نشر دار ابن القيم، الدمام ١٤٠٨هـ.

درجاته"، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت:٢٢٣هـ)، وكتاب "الإيمان" لمحمد بن يحيي بن أبي عمر العدني (ت:٢٤٣هـ)، وكتاب "الإيمان" لمحمد بن إسحاق بن يحيي بن منده (ت:٣٩٥هـ)، وكتاب: "الإيمان وأصوله" لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت:٤٢٩هـ)، وكتاب "شعب الإيمان" لأبي بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ).

ثم كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) وهما "الإيمان الأوسط" "والإيمان الأكبر"، وأيضا كتاب: "تنبيه الوسنان إلى شعب الإيمان" للشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي (ت:٩٣٦هـ) وغير ذلك كثير [(١)].

٥- أصول الدين: الأصول جمع أصل، وهو في اللغة ما يُفتقر إليه، ولا يَفتقر هو إلى غيره، وفي الشرع ما يُبني عليه غيره، ولا يُبني هو على غيره. وعلى هذا فأصول الدين قوام أركانه، وأساس بنيانه [(٢)].

ومن العجب أن اصطلاح "أصول الدين" الذي اشتهر ولا يزال مشتهرا حتى سميت باسمه الكليات الجامعية في سائر البلاد الإسلامية هو في حقيقته من صنع المبتدعة من المعتزلة والمتكلمين الأشعرية.

فإذا كان مصطلح الأصول قد اشتهر بين السلف مرتبطا بالفقه، إلا أن اقترانه بالدين كان جهمي المنشأ والتكوين، فالمعتزلة أطلقوه على

---

(١) كشف الظنون ١/٤٤٨.

(٢) انظر التعريفات للجرجاني ص٤٥، والمبدع في شرح المقنع ٤/١٥٨،لأبي إسحاق بن مفلح الحنبلي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٠هـ.

أصولهم الخمسة، وجعلوا تلك الأصول أساسا للدين، لا يقبل إلا من خلالها، وإن لم يكن الاصطلاح مشتهرا في عصرهم.

أما أغلب الذين استعملوه من متكلمي الأشعرية، فكانوا يرغبون أن تكون أصولهم العقلية متميزة عن الأصول الخمسة عند المعتزلة، حيث اعتبروا أنفسهم أهل السنة والجماعة، الذين جمعوا حسب زعمهم بين عقيدة السلف، أو جمعوا بين أصحاب المدرسة النقلية وعقيدة المعتزلة أصحاب المدرسة العقلية، فابتدعوا أصولا عقلية أخرى، أثبتوا بها سبع صفات فقط لإرضاء للسلف، وعطلوا باقي النصوص التي تدل على الصفات الخبرية بما يسمى عندهم بالصفات السلبية لإرضاء للمعتزلة، رافعين شعار المجاز والبلاغة والتأويل لكل النصوص التي يتوهمون فيها التشبيه والتمثيل، وظاهرها عندهم تجسيم باطل مستحيل، ثم أطلقوا على أصولهم في التوحيد الذي ابتدعوه مصطلح: "أصول الدين".

وأول من عرف عنه هذا الاصطلاح في كتاب مدون، هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد البلخي (ت:٣١٩هـ) إذ أنه ألف كتابا سماه: "أوائل الأدلة في أصول الدين"، وقام أبو بكر بن فورك الأصبهاني (ت:٤٠٦هـ) بشرحه، وكلاهما ضليعان في المذهب الأشعري [(١)].

وقد ألف أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد النيسابوري (ت:٤٧٨هـ)

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١٢/٢٠٠.

كتابا سماه: "الغنية في أصول الدين"، نسجه أيضا على طريقة الأشعرية ومنهجهم، قال في بدايته: (فصل في بيان العبارات المصطلح عليها بين أهل الأصول منها: العالم هو اسم لكل موجود سوى الله تعالى، وينقسم قسمين: جواهر وأعراض، فالجوهر كل ذي حجم متحيز، والحيز تقدير المكان، ومعناه أنه لا يجوز أن يكون عين ذلك الجوهر حيث هو، وأما العرض؛ فالمعاني القائمة بالجواهر كالطعوم والروائح والألوان، والجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتصور تجزئته عقلا، ولا تقدير تجزئته وهما، وأما الجسم، فهو المؤلف، وأقل الجسم، جوهران بينهما تأليف.. الخ) [(١)].

ثم بدأ يطبق تلك الأصول العقلية، أو الفلسفية اليونانية على ذات الله ﷻ وصفاته وأفعاله، فينفي بها ما يشاء ويثبت، مستخدما منهج التأويل، سواء تيسر له الدليل، أو لم يتيسر، فالهدف الأعلى هو التعطيل لأن الإثبات في اعتقاده تشبيه وتمثيل.

وعلى الوتيرة نفسها ألف جمال الدين أحمد بن سعيد (ت:٥٩٣هـ) كتابا سماه: "أصول الدين" انتهج فيه مذهب المتكلمين من الأشعرية وطريقتهم في الغيبيات، ومما جاء فيه: (فصل، صانع العالم لا يقال له: أين هو؟ لأن أين يستخبر به عن المكان، ولا مكان له) [(٢)].

هكذا زعم أن صانع العلم لا يسأل عنه بأين، وكأن رسول الله ﷺ

---

(١) الغنية، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ص٣٩.

(٢) أصول الدين تحقيق عمر وفيق الداعوق ص٦٠، ص٨١.

لم يحسن أن يسأل الجارية: أين الله؟ روى مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال: (وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله، فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة) [(١)].

وقال حاجي خليفة عن كتاب فخر الدين الرازي: ("الأربعون في أصول الدين" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت:٦٠٦هـ)، ألفه لولده محمد ورتبه على أربعين مسألة من مسائل الكلام) [(٢)].

ومعلوم أن الرازي من أبرز المدافعين عن المذهب الأشعري قبل توبته وعودته لمذهب السلف. وقال ياقوت الحموي في ترجمة الجويني (ت:٤٧٨هـ): (أبو المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني إمام الحرمين، أشهر من علم في رأسه نار، كان قليل الرواية، معرضا عن الحديث، وصنف التصانيف المشهورة، نحو الشامل في أصول الدين على مذهب الأشعري، والإرشاد وغير ذلك) [(٣)].

٦- الشريعة: قال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله في كتابه

(١) مسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ (٥٣٧).

(٢) كشف الظنون ١/٦١.

(٣) معجم البلدان لأبي عبد الله ياقوت الحموي ٢/١٩٣،نشر دار الفكر بيروت.

"الشريعة": (كتاب الإيمان والتصديق بأن الله ﷻ كلم موسى عليه السلام، الحمد لله المحمود على كل حال، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم. أما بعد فإنه من ادعى أنه مسلم، ثم زعم أن الله ﷻ لم يكلم موسى فقد كفر، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإن قال قائل: لم؟ قيل: لأنه رد القرآن وجحده، ورد السنة، وخالف جميع علماء المسلمين، وزاغ عن الحق، وكان ممن قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾النساء:١١٥. وأما الحجة عليهم من القرآن: فإن الله ﷻ قال في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾النساء:١٦٤. وقال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الأعراف:١٤٣. وقال ﷻ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ الأعراف:١٤٤) [١].

وقال في نهاية الكتاب: (وبهذا وبجميع ما رسمته في كتابنا هذا، وهو كتاب الشريعة، ثلاثة وعشرون جزءا ندين الله ﷻ وننصح إخواننا من أهل السنة والجماعة، من أهل القرآن، وأهل الحديث، وأهل الفقه، وجميع المستورين في ذلك؛ فمن قبل فحظه من الخير إن شاء الله، ومن رغب عنه، أو عن شيء منه، فنعوذ بالله منه، وأقول له كما قال نبي من أنبياء الله ﷻ لقومه لما نصحهم، فقال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ

---

(١) الشريعة للآجري ٥/٢٥٦٦، نشر دار الوطن ، الرياض.

وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ غافر: ٤٤).

٧- علم الكلام: لما ظهرت مذاهب الضلال في باب العقيدة على يد الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية، وبنوا أصول عقيدتهم على الحجج العقلية، والكلام الفاسد في باب الغيبيات ونفي الصفات، ولم يستندوا إلى ما ورد في الأدلة القرآنية والنبوية إلا باعتبارها دليلا ثانويا وليس دليلا أساسيا في إثبات العقائد، بل ما وافقهم منها أخذوه، وما خالفهم عطلوه، أطلق هؤلاء وغيرهم على مسائل التوحيد والعقيدة علم الكلام لكثرة الجدل بين الطوائف المختلفة في مسائله، أو لأن أعظم مسألة من قضايا هذا العلم كثر فيها النزاع كانت مسألة الحديث عن كلام الله، وهل هو مخلوق أم غير مخلوق؟

وهذه التسمية غير معتمدة عند السلف الصالح الذين يعبرون بحق عن أهل السنة والجماعة، بل آراؤهم مجتمعة على ذم الكلام وأهله الذين عارضوا به الكتاب والسنة. وتجدر الإشارة إلى أن السلف لم يمنعوا الاحتجاج بالأدلة العقلية لتأييد الأصول القرآنية والنبوية، وشرح مضمونها وبيانها، وإنما منعوا أن تكون تلك الأصول هي التي يقيم عليها المسلم عقيدته في الغيبيات أو توحيد الأسماء والصفات والأفعال، أو يعارض بها الأدلة النقلية القرآنية والنبوية.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وببعضهم إلى الإلحاد، ولم تسكت القدماء

من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزا، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلا، ثم يرد الصحيح عليلا، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه، حتى قال الشافعي رحمه الله: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.. وقال: حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام، وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدا، علماء الكلام زنادقة) [(١)].

وقد حذر أتباع السلف الصالح من علم الكلام، وألفوا كتبا في ذمه وتقبيحه، منها كتاب "تحريم النظر في كتب الكلام" لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، وفي المقابل تجد من كَتَب ليحذر من صعوبة علم الكلام، وأنه علم راق لا يصلح إلا للخواص، كما فعل أبو حامد الغزالي في كتابه: "إلجام العوام عن علم الكلام" .

وقد ألفت كتب كثيرة من قبل المتكلمين في هذا العلم، معتبرين إياه علم التوحيد الأمثل الذي نزل به جبريل على محمد بن عبد الله ﷺ، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر كتاب: "نهاية الإقدام في علم الكلام" لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت:٥٤٨هـ). وكذلك كتاب: "الداعي إلى الإسلام في أصول علم الكلام"، لأبي البركات بن محمد الدفع (ت:٥٧٧هـ). وأيضا كتاب: "مطية النقل

---

(١) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٠٢. وقواعد العقائد لأبي حامد الغزالي ص٨٥. وتحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة المقدسي ص٤١.

وعطية العقل في علم الكلام"، لمحمد بن إبراهيم الصوفي (ت:٦٢٢هـ)، وكتاب: "غاية المرام في علم الكلام" لسيف الدين أبي الحسن الآمدي (٦٣١هـ). وكتاب: "زبدة الكلام في علم الكلام" لصفي الدين الهندي (ت:٧١٥هـ). وكذلك: "علم الكرام في علم الكلام"، للشيخ زين الدين المالطي (ت:٧٨٨هـ). "والمواقف في علم الكلام"، للعلامة عضد الدين الإيجي (ت:١٠٠٠) [1].

تلك أغلب المصطلحات التي وردت عَلَما على علم التوحيد تعبر عن التطور التاريخي للمراحل التي مر بها. وقد كان السلف الصالح على أعلى درجات التوحيد والإيمان، وكان المصطلح الشائع بينهم مصطلح الإسلام والإيمان، تعبيرا عن خضوعهم لله وحده، وعدم الإشراك به، والإيمان بكل ما ورد في الكتاب والسنة، مما يتعلق بالغيبيات وبذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

- **مفهوم الإلوهية عند السلف الصالح.**

توحيد الإلوهية سمي بذلك عند السلف لأنه المقصود بقول العبد لا إله إلا الله، فالإله هو المعبود بحق، الذي يدعى وحده لا شريك له. وتوحيد الإلوهية عندهم هو توحيد العبادة لله، وتجريدها له وحده، وتلك هي الغاية التي دعت إليها الرسل، ونزلت من أجلها الكتب.

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٦/٤٠، وكشف الظنون ١/٧٢٨ ، ٢/١١٦٠.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١.

وقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ القصص: ٨٨.

وقال ﷻ: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ غافر: ٦٥. وقال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ المزمل: ٩.

ومما ورد في السنة في بيان معنى لا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، ما تقدم ذكره، مما ثبت فيه أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ؓ إلى أهل الكتاب في اليمن قال له: (فَلْيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللّهَ تعالى) [(١)]. وفي رواية أخرى بينت أن المقصود بالتوحيد هو توحيد العبادة وأنه معنى لا إله إلا الله [(٢)].

قال ابن تيمية رحمه الله: (لا إله إلا أنت، فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته، ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد، هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزمك أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية

---

(١) انظر ص٢٣٣.

(٢) البخاري في الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل) [١].

- **مفهوم الإلوهية عند الخلف وعلماء الكلام.**

قد يتنوع معنى لا إله إلا الله، أو مفهوم الإلوهية عند قائليه، ولا يعني به المعنى الذي يقصده السلف الصالح، فمنهم من جعل الإلوهية بمعنى الربوبية وحصرها في إفراد الله بالخالقية. ومنهم من يعني أنه لا موجود إلا الله على اعتبار أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق حالة ظهوره بأشكال متعددة، وكثرة متنوعة. ومنهم من يعني بها العلة الأولى، أو العقل الفعال، فليس كل من قال لا إله إلا الله، يعني بها ما أراده الله في كتابه أو أراده رسوله ﷺ في سنته [٢].

والإلوهية عند الخلف الأشعرية والماتريدية، المعروفين بأهل النظر والكلام، الذين اتبعوا فلاسفة اليونان، جعلوها بمعنى الخالق، أو القادر على الاختراع[٣]. وجعلوا غاية التوحيد عندهم إثبات أن صانع العالم واحد، وأن الواحد الحقيقي هو الشيء الذي لا ينقسم.

واحتجوا على وحدانية الإله بما يسمي بدليل التمانع، وهو من الأدلة العقلية على إثبات توحيد الربوبية، وملخصه أنا لو قدرنا إلهين

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٤٩/١٠، ودقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٣٦٤/٢) نشر مؤسسة علوم القرآن دمشق، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٤٥٩/١ بتصرف.

(٣) كتاب المواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ٣٠٦/٣، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة،، نشر دار الجيل بيروت سنة ١٩٩٧م.

اثنين، وفرضنا أمرين متضادين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الأمرين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخلو من أمور ثلاثة:

١- إما أن تنفذ إرادتهما.

٢- وإما لا تنفذ إرادتهما.

٣- وإما تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر.

ويستحيل أن تنفذ إرادتهما لاستحالة اجتماع الضدين، كما يستحيل أيضا ألا تنفذ إرادتهما لتمانع الإلهين، وخلو المحل عن كلا الضدين.

وإذا بطل القسمان تعين الثالث، وهو أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، فالذي لا تنفذ إرادته هو المغلوب المقهور المستكره، والذي نفذت إرادته هو الإله القادر على تحصيل ما يشاء، وذلك عندهم مضمون ما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنبياء:٢٢ [(١)].

قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية معقبا على الاستدلال بالآية السابقة كحجة على دليل التمانع:

(وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان.. الخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه

---

(١) انظر لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة ص ٩٩، لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق د. فوقية حسين نشر عالم الكتب بيروت ١٩٨٧م، وانظر أيضا الغنية في أصول الدين ص٦٧.

أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل: أربابا، وأيضا فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما، وهما موجودتان آلهة سواء لفسدتا، وأيضا فانه قال: لفسدتا، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا) [1].

وقد بين أيضا في معرض الرد على هؤلاء، أن الآية دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحدا، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد [2].

وقد بين الله ﷻ أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وكانوا يعتقدون أن الله خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم كما قال تعالى في شأنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١. فالقلوب مفطورة على الإقرار بالخالق أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٧.

(٢) السابق ص ٨٧.

ولم يذهب إلى غير ذلك طائفة معروفة من بني آدم، بل الأمر كما قالت الرسل لأممهم، وكما ذكر الله ﷻ في شأنهم: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم: ١٠ .

وهذا فرعون الذي تظاهر بإنكار الصانع وتجاهله كان مستيقنا بالله في الباطن كما قال له موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٢ . وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل: ١٤ [1].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن هؤلاء المتكلمين المتأخرين الذين خلطوا الفلسفة بالكلام كثر اضطرابهم، وازدادت شكوكهم وحيرتهم، بحسب ما ازدادوا به من ظلمة هؤلاء المتفلسفة.. وأخرجوا من التوحيد ما هو منه، كتوحيد الإلهية، وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته، ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه، وهذا التوحيد كان يقر به المشركون، وهم مع هذا يعبدون غيره. وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الإلوهية المتضمن لتوحيد الربوبية، وأن يعبد الله وحده، لا يشركون به شيئا، فيكون الدين كله لله، ولا يخاف إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، فيحبون لله، ويبغضون لله، ويعبدون الله،

---

(١) انظر السابق ص ٧٧.

ويتوكلون عليه [(١)].

ومن ثم فإن توحيد الربوبية والأسماء والصفات في عرف السلف من قبيل الوسيلة إلى الغاية، وليس من قبيل الغاية، فمعرفة المعبود، والإقرار بأن الله ﷻ خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان، هو حق لا ريب فيه، ولكن ذلك وسيلة إلى توحيد العبادة، وتحقيق الغاية من خلق الإنسان، فمعني لا إله إلا الله عند السلف الصالح، لا معبود بحق إلا الله، وعند الخلف معناها لا خالق إلا الله.

- **مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية.**

أما مفهوم الإلوهية عند غلاة الصوفية، فإنها تعني لا موجود إلا الله، حيث ذهب فريق من الصوفية يتزعمهم محي الدين بن عربي الأندلسي (ت:٦٣٨) إلى أن الله هو هذا الوجود بعينه، وهو ظاهر في أشكال متعددة، وكثرة متنوعة، وأنه لا موجود إلا هو.

أما الكثرة المشاهدة في العالم من أنواع المخلوقات فهي على زعمهم وَهْمٌ، يحكم أصحاب العقول القاصرة، وهي في حقيقتها مظاهر لله فقط، أو مرآة يري نفسه فيها، ويتعين لنفسه وللآخرين من خلالها، أو أثواب يلبسها ويخلعها وقتما يشاء، فهو السماء بما فيها من شمس وقمر ونجوم، وهو السحاب الذي نراه بين السماء والأرض عند الصفاء

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢٨٨/٣ بتصرف، وانظر أيضا تحقيق هذه المسألة في مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣٦/١، ١١/٢ ، ١٠٠/٣.

والغيوم، لا فرق بين الأنداد والأضداد، ولا فرق بين الرب والعباد، فالعابد عندهم هو المعبود، والذاكر هو المذكور، والإنسان هو ربنا الرحمن، وربنا المنان الديان هو هذا الإنسان، كما يقول ابن عربي عليه من الله ما يستحق: (ما في الوجود مثل، ما في الوجود ضد، فإن الوجود حقيقة واحدة، والشيء لا يضاد نفس) [(١)].

ويقول أيضا:

فإنا أعبدٌ حقا : وإن الله مولانا
وإنا عينه فاعلم : إذا ما قلت إنسانا
فلا تحجب بإنسان : فقد أعطاك برهانا:
فكن حقا وكن خلقا : تكن بالله رحمانا [(٢)].

ويزعم هؤلاء الغلاة أنه كلما فنيت صورة من وجود الله وخلعها عن نفسه لبس صورة أخرى، وكذلك يظل يلبس صورة ويخلع أخرى بلا انقطاع، وهذا حكم منه اقتضاه لظهور هذا الوجود لكي، لا يكون موجود إلا هو.

ويلزم على هذا المذهب الخبيث، تأليه جميع الأشياء وعبادتها، فلا مانع عند ذلك أن يكون المعبود إنسانا، أو وحيوانا، أو ملكا، أو شيطانا، أو صنما، أو أوثانا، ولذلك يري هؤلاء الزنادقة أن الأديان

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي شرح عبد الرزاق الكاشاني ص ٩٢.

(٢) السابق ص ١٤٣.

كلها حق، وأن المجوس عابدي النيران، والمشركين عابدي الأوثان، والنصارى عابدي الصلبان، وغيرهم من أهل الشرك والطغيان، ليسوا كفار ضلالا، بل مذاهبهم هي عين التوحيد والإيمان، لأنهم حين عبدوا النيران، والحجارة والصلبان، ما عبدوا إلا الله ﷻ، تعالى الله عن قولهم، فتلك المعبودات عندهم تجليات ظهرت بها الذات الإلهية.

والتوحيد في زعمهم أن تعبد جميعا، وأن تعظم جميعا، والشرك الضلال عندهم أن تخصص بعض هذه المظاهر بالعبادة دون بعض، فالكفر عندهم ليس هو عبادة غير الله، ولكنه ستر حقيقة المعبود بتخصيص بعض مجاليه بالعبادة دون البعض الآخر.

وحكم هؤلاء الزنادقة أيضا بأن إمام الموحدين هو فرعون، لأنه كان يشاهد عين الحقيقة حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولم يكن كاذبا في دعواه أنه هو الله، بل كان في أعلى مقامات التوحيد.

وقد أغرق في البحر تطهيرا له من الشرك عندما هم بالإسلام في لحظاته الأخيرة وتوهم الغيرية. وزعموا أيضا أن موسي ؑ لم يلم قومه على عبادة العجل ولم ينكرها عليهم [(١)].

---

(١) انظر المزيد عن عقيدة الصوفية في وحدة الوجود: ابن تيمية وفلاسفة التصوف للدكتور محمد سليمان داود،، وابن الفارض والحب الإلهي للدكتور محمد مصطفي حلمي، وانظر أيضا مصطلحات ابن عربي وأصحاب وحدة الوجود في المعجم الصوفي للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني.

ومعلوم أن تلك العقيدة كفر صريح بآيات القرآن التي نطقت بموت فرعون على الكفر، وأنه لم ينفعه إيمانه حين أدركه الغرق، وأن الله إنما نجاه ببدنه ليكون عبرة ماثلة للأجيال من بعده. فهؤلاء الغلاة من الصوفية يشهدون ألا إله إلا الله ويضعونها على هذا المعنى الخبيث، فيغتر الجاهل بشهادتهم، ويظن أنهم يقصدون ما قصده أصحاب محمد بن عبد الله ﷺ ومن سار على دربهم.

- **مفهوم الإلوهية عند الفلاسفة.**

وعلى شاكلة الصوفية في تأويلاتهم الباطنية فسر الفلاسفة كابن سينا والفارابي وغيرهما معنى الإلوهية في كلمة التوحيد، فالإله عندهم هو بذاته علة تامة أزلية للعالم بما فيه من الحوادث المتجددة، وقد فاضت المخلوقات عن الذات الإلهية، أو ما يسمونها بالعلة الأولية، أو المبدأ الأول، أو واجب الوجود، فاضت تلك المخلوقات بالعلل والمعلولات بعدها، وكل علة عندهم أكسبت معلولها قوة الإيجاد والإعداد لما بعدها في تسلسل متصل، وليس العالم عندهم ناتجا عن علم وإرادة وقدرة اتصف بها خالقه، ولكنه صدر عنه صدور المعلول عن علته، فهو سبحانه وتعالى عندهم العلة الأولى التي لا يقوم بها شيء من الصفات والأفعال.

ولما قرروا أن العالم معلول لعلة قديمة أزلية، قالوا أيضا بقدم العالم، وأنه لم يزل مع الله أزلا وأبدا، فالرب والعالم على أصلهم متلازمان، كل منهما شرط في الآخر، والرب محتاج إلى العالم، كما أن العالم

محتاج إلى الرب، تعالى الله عن قولهم.

وتلك عقيدة فلسفية باطلة، تؤدي إلى هدم التوحيد، ونسف حقيقة الإلوهية التي اتصف بها الإله الحق؛ لأن الله تعالى لم يزل ذا قدرة ومشيئة وعلم وحياة، ولم يزل فعالا متكلما إذا شاء وكيف شاء، والله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره، وليس معه شيء من خلقه، فكيف يقترن الخالق والمخلوق اقتران العلة بمعلولها؟ فهؤلاء استخدموا الأقيسة التي تحكم الأسباب في عالم الشهادة في الحكم على خالقهم الذي ليس كمثله شيء.

ومعلوم أن الله ﷻ لا يخضع لقياس تمثيلي يستوي فيه الفرع والأصل، أو قياس شمولي يستوي فيه مع بقية أفراده، كما أنهم أيضا سلبوا عن رب العزة والجلال ما ثبت له في القرآن والسنة من أوصاف الكمال، عندما جعلوه علة تامة أزلية، لا يحدث فيها ولا منها شيء، وجعلوه ذاتا خاملة لا حراك فيها، ولا علم لها ولا مشيئة، ولا قدرة ولا حكمة، ولا عزة ولا رحمة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، فالله ﷻ عاب المشركين أنهم عبدوا الحجارة والأصنام، ونعي عليهم أنها لا تخلق ولا تتكلم.

وفضلا عن أن عقيدة السلف في معني الإلوهية تدور حول إفراد الله ﷻ بالعبودية، وهي تختلف عن عقيدة المتكلمين الأشعرية والفلاسفة والصوفية، إلا أنهم يجعلون المرجعية في حدوث المخلوقات هو الكمال المطلق في الصفات التي تقوم بالذات الإلهية، كالعلم والإرادة

والقدرة، والحياة والغني والقوة، والعزة الرحمة والحكمة، والخلق والتقدير، والإبراء والتصوير، وكل ما يلزم لإيجاد المخلوقات من الأسماء والصفات عملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس:٨٢ .

ومن ثم فإن الله ﷻ صانع كل شيء بقدرته، وعلة كل شيء صُنْعُه، ولا علة لصنعه، وهو سبحانه وتعالى واحد أحد، وتر صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وليس الإله علة وجود الأشياء، وإنما العلة صفاته الفاعلة [1].

• التوحيد عند السلف نوعان باعتبار وثلاثة باعتبار.

إذا علمنا أن توحيد الإلوهية عند السلف يعني توحيد العبادة، فيجدر بنا أن نذكر أنواع التوحيد عند السلف الصالح حتى يمكن التعرف على عقيدتهم ومنهجهم وأدلتهم في تصنيف التوحيد، فالتوحيد عند السلف نوعان، وقد يقسم إلى ثلاثة أنواع على اعتبار آخر سوف يأتي تفصيله.

أما تصنيف التوحيد إلى نوعين، والأسماء التي قد يرد بها كل نوع

---

(١) انظر في التوحيد عند الفلاسفة: الرسالة العرشية لابن سينا ص١٠: ١٢، وانظر تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي ص٣٧، نشر دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٢م، والتعليقات ص٢٠. وهي رسالة من رسائل الفارابي ضمن أحد عشر رسالة، طبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند سنة ١٩٢٦م.

في كتب العقيدة، فبيانه كالتالي:

الأول: هو توحيد الغاية، ويسمى أيضا توحيد الإلوهية، وربما يطلق عليه أيضا توحيد العبادة، وتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الشرع والقدر، وتوحيد الإرادة.

الثاني: هو توحيد الوسيلة، ويسمى توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو يطلق عليه توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العلم والخبر، وهذا النوع كما تقدم يمثل غاية المطلوب في توحيد الله عند كثير من الخلف، أهل النظر والكلام، وطائفة كبيرة من الصوفية.

- **الأسماء التي أطلقت على النوع الأول من التوحيد.**

أما النوع الأول فسمي توحيد الغاية، وتوحيد العبادة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ الذاريات:٥٦. فعبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية التي خلق الناس من أجلها، وهي أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وقد بينت الآية العلة في خلق العباد بلام التعليل في قوله: "إلا ليعبدون" .

ولما جعل أهل الضلال من الجهمية وأصحاب الاعتزال غايتهم في التوحيد تدور حول إثبات الأسماء ونفي الصفات، وكذلك الأشعرية من بعدهم الذين صنفوا التوحيد بقسمة عقلية مبنية على ما يجب للذات من الصفات والأفعال، وجعلوا ذلك غايتهم من التوحيد، كان رد الفعل الطبيعي عند الصادقين من الموحدين أتباع السلف أن

يبينوا لجميع المسلمين الفرق بين توحيد الغاية وتوحيد الوسيلة، وأن توحيد الغاية هو توحيد العبادة، الذي من أجله نزلت الكتب، وبعثت الرسل.

أما التوحيد عند هؤلاء ففضلا عن كون تصنيفاتهم له تخالف النصوص القرآنية والنبوية، إلا أنها وما يدور حولها من موضوعات لم تكن محلا للخلاف بين الرسل وأممهم: لأن الله ﷻ أودع في نفوس البشر من الإقرار بعظمته في ذاته وصفاته وأفعاله وربوبيته لخلقه ما أقر به المشركون في الجاهلية، فقد كانوا يعلمون أن الله ﷻ خالقهم ورازقهم، وأنه عظيم في ذاته، لا يماثل شيئا من معبوداتهم التي يعظمونها. فالنوع الأول هو توحيد الغاية، أو توحيد العبادة.

ويسمي أيضا توحيد الإلوهية أو الإلهية، كلاهما صحيح، وذلك لأنه معنى قول العبد: لا إله إلا الله، فقد تقدم أن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (توحيد العبادة هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام، فإن الإسلام يتضمن أصلين: أحدهما: الاستسلام لله، والثاني: أن يكون ذلك له سالما، فلا يشركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه) (١).

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/٢٥٠.

ويُسمي توحيد القصد والطلب؛ لأنه يتعلق بنية المسلم ومطلبه في الحياة، روى البخاري في صحيحه من حديث عُمَر بْن الخَطابِ ﵁ أنه سمع رَسُول اللهِ ﷺ يقول: (إِنَّمَا الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُل امْرِئ مَا نَوَي، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه) [1].

ومعلوم أن العبادة تتضمن الطلب والقصد، والإرادة والمحبة، وهذا لا يتعلق بمعدوم، فإن القلب يطلب موجودا، فإذا لم يطلب ما فوق العالم طلب ما هو فيه[2].

وهذا النوع من التوحيد يُسمي أيضا توحيد الإرادة، فالإرادة في الأصل من راد يرود إذا سعي في طلب الشيء، وهي قوة مركبة في قلب الإنسان جعلت اسما لشروع النفس إلى الشيء، مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أولا يفعل [3].

والإرادة قريبة من القصد والنية والعزم على الفعل، وكلها من أعمال القلوب ومنطقة الكسب، كقوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) البخاري في كتاب بدء الوحي ١/١ (٤٥).

(٢) انظر بتصرف الفتاوى الكبرى لا بن تيمية ٢/٢٩٨.

(٣) المفردات ص٢٠٦/٢٠٧، ولسان العرب ١/٣٦٢.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ الإسراء:١٨/١٩.

وقد سُمّي هذا التوحيد توحيد الإرادة لتوافق الإرادات، فالعبد إذا حققه توافقت إرادته مع الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية، فالمؤمن الذي كمل إيمانه تتوافق فيه الإرادات. والكافر تتخلف فيه إرادة الله الشرعية فقط، وهي إرادة بمعنى الأمر الشرعي الموجه إلى المكلفين، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة:١٨٥. وكقوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ المائدة:٦.

وتلك الإرادة قد تتخلف وقد يعصيها الإنسان، أما إرادة الله الكونية القدرية فهي مشيئة الله النافذة، وهي بمعنى القضاء والقدر والحكم المنتهى، والقضاء المبرم، والتقدير الحتمي الواقع، فمتى قيل: أراد الله كذا على المعنى الكوني، فمعناه شاءه وقضاه وقدره وخلقه وكونه، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ البروج:١٦.

وكقوله أيضا: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ المائدة:١٧ .

سئل سهل بن عبد الله التستري (ت:٢٩٣هـ) عن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ البقرة:٣٤ . فقيل له: لما أمر إبليس بالسجود، أراد

منه ذلك أم لا؟ فقال: أراده، ولم يرده [١].

وهو يقصد بذلك أنه سبحانه أراده شرعا، وإظهارا عليه إيجابا وتكليفا، وهي إرادة الله الشرعية المظهرة للحكمة في اسمه الحكيم، ولم يرده منه وقوعا وكونا، إذ لا يكون في ملكه إلا ما أراد الله تعالى، وهذا وصف القدرة إظهارا لاسمه القدير، فلو أراد كونه لكان، ولو أراده فعلا لوقع، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس:٨٢. فلما لم يكن السجود عُلم أنه لم يرده بقدرته، فقد كان الأمران معا، إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته ألا يسجد، ولذلك أراده، ولم يرده، فلم يقدر أن يمتنع من ألا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع أن يؤمن [٢].

وكما سمي هذا النوع بتوحيد الإرادة، فإنه يسمي أيضا توحيد الشرع والقدر؛ لأن عقيدة السلف عقيدة وسط بين الجبرية والقدرية، فالمسلم يجب أن يسلم لله في تدبيره الشرعي وتدبيره الكوني معا، فيعمل بشرعه ويؤمن بقدره، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، ومعنى ذلك أن المسلم إذا وفقه الله إلى الطاعة واجتهد في أحكام العبودية، وأدى توحيد الإلوهية، نسب الفضل في طاعته إلى ربه، وأنها كانت بمعونته وتوفيقه لما سبق في حكمه وقضائه وقدره، ولا ينسب الفضل إلى نفسه، أو يمن به على ربه.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ص١٢٨.

(٢) السابق ١/١٢٨.

قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجرات:١٧.

هذه أغلب الأسماء والمصطلحات التي تطلق على النوع الأول من التوحيد في كتب العقيدة.

- **الأسماء التي أطلقت على النوع الثاني من التوحيد.**

أما النوع الثاني وهو المسمي توحيد الوسيلة، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد العلم والخبر، فقد سمي توحيد الوسيلة لأن إثباته لله، أو الإيمان به فقط، لا يكفي لدخول الجنة، وعلة ذلك أن الله ﷻ حدد الغاية من خلق الإنسان فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات:٥٦.

ومن ثم فإن عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل هي الطريق إلى الجنة، وهي الغاية التي خلق الناس من أجلها، فالحصول على الجنة سببه الطاعة والعبادة.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كُل أُمَّتِي يَدْخُلونَ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَي، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَنْ يأبى؟ قَال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَل الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَي) [(١)].

أما من يجعل غايته من التوحيد البحث عن وجود الله، والتعرف على

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله(٦/٢٦٥٥) (٦٨٥١).

أوصافه بقوانين العقل، أو التواجد والذوق، كما هو الحال عند الجهمية والصوفية، وأحفادهم من المعتزلة والأشعرية والماتريدية، أو حتى بالرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فهذا كله عند السلف وسيلة لتحقيق العبادة من خلال معرفة المعبود، فتوحيد العبادة يدل على توحيد الربوبية بالتضمن، وعلى الأسماء والصفات بالتلازم.

قال ابن القيم: (وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع، ولهذا كان حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) [1].

ويسمي النوع الثاني من التوحيد أيضا توحيد الربوبية والأسماء والصفات، لأن موضوعه يدور حول إثبات الوحدانية في ربوبية الله ﷻ من خلال الأدلة النقلية والعقلية، وإثبات أنه سبحانه المنفرد بالخلق والتقدير، والملك والتدبير، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا موت، ولا حياة، ولا إضلال، ولا هدي، ولا سعادة، ولا شقاوة إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالك ولا ملك إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، فهذه حقيقة الربوبية، ومعنى كونه رب العالمين [2].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٣٠.

(٢) شفاء العليل ١/٤٤ بتصرف.

وكذلك فإن هذا النوع يدور أيضا حول الطريقة المثلى في معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقيقة المنهج الصحيح الذي لم يتلوث بشيء من أفكار المخالفين، ودنس الشبهات التي تؤدي إلى هدم التوحيد في قلوب المسلمين، وكيف أثبت السلف الصالح لربهم حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات؟

وكيف أن مذهبهم في ذلك مذهب وسط بين مذهبين، وهدي بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين، و من بين المجهلين والمشبهين، كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين؟

وكيف وضعوا ضابطا يحكم منهجهم ويبين عقيدتهم في الأسماء والصفات؟ عندما قالوا بإثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وعندما قالوا: لا نعطل، ولا نؤول، ولا نمثل، ولا نجهل، ولا نقول: ليس لله يدان، ولا وجه، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استواء على عرشه. ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق، ووجه كوجوههم، وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم. بل قالوا: له ذات حقيقية ليست كسائر الذوات، وله صفات حقيقية ليست كسائر الصفات، وليست دربا من المجازات أو نوعا من التخييلات. وكذلك قولهم في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه، ولم يمنعهم ذلك أن يفهموا المراد

من تلك الصفات وحقائقها [١].

هذا مع التعرف على فقه الأسماء الحسنى وتمييزها بنصوصها النقلية التوقيفية الثابتة في أدلتها، وحفظها وفهم دلالتها على الصفات، مطابقة وتضمنا والتزاما، ودعاء الله بها، دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وتأثير ذلك في سلوك المسلم واعتقاده .

وهذا النوع يسمي أيضا توحيد العلم والخبر، لأن تحصيل العلم به ورد فيما أخبرنا الله به في كتابه وسنة رسوله ﷺ، فغاية ما للعقل من جهد محدود في هذا الباب، إثبات الخالق ووصفه بأوصاف العظمة، سواء بالنظر إلى الأسباب المشهودة في الآفاق، أو بالنظر إلى النفس وتركيبة الإنسان في دقائق الأعماق، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت:٥٣ .

أما لو تَرك الإنسان لعقله العنان في وصف المعبود، فسوف يضع الأقيسة والقواعد والقيود، وسوف يتجاوز الحدود لا محالة في حكمه على ذات الله تعالى، أو حكمه على صفاته وأفعاله، كما فعل أصحاب المدارس العقلية، المنتهجين لفكر الجهمية، وقد كانت النتيجة الحتمية أن وقعوا بجهلهم في الزيغ والضلال، ووصفوا الله تعالى بالعجز والمحال .

---

(١) الصواعق المرسلة ٢/٤٢٦ بتصرف.

وتوحيد العلم والخبر يُسمي أيضا توحيد المعرفة والإثبات؛ لأن المسلم مطالب بمعرفته، وإثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ، فالتوحيد بغير إثبات الصفات، هو في حقيقته نقص ومذمة، كما هو الحال في الأصل الأول من أصول المعتزلة.

ذلك لأن المتوحد المنفرد عن غيره، لا بد أن ينفرد بصفة يتميز بها، ولا يشاركه فيها أحد سواه، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا ولا متميزا، فالله وله المثل الأعلى، أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص، ليثبت توحده في ذاته وصفاته وأفعاله.

وهذا منهج القرآن، فبعد أن بدأ الله ﷻ بالتوحيد أولا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١. اتبع ذلك بإثبات الصفات العليا التي تليق به فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات وهذا هو المناسب للفطرة السليمة والعقول المستقيمة، ومن أجل هذا سمي هذا النوع من التوحيد بتوحيد المعرفة والإثبات.